الاستبداد والتعليم

المكتوب العاشر (*)

من أراسم الى ولده

عن لوندرة في ١٥ فبراير سنة ١٨٦٠

لا حق لك يا عزيزي «اميل» في أن تكون بلا رأي سياسي فانما رجل يعيش في قوم ويظهر متنزلا لما يتعارض بينهم من المصالح غافلا عما بتقاسم عقولهم من المذاهب فهو غاية في الحقارة والخسة وكان حقه أن ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية

نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس في الازمان الغابرة أنهم مرسلون من عند الله لسياستهم وتدبير شؤونهم وكان على الرعايا على هذا الفرض قد قصر على الطاعة المطلقة لأوامرهم فكانوا ملكا للاهم وخاصتهم كما تملك الارض ولا حق للارض في أن تثور على اليد العاملة فيها وأما الآن فلم يبق في البلاد المهذبة بهذي العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذي يزعمه الملوك الا النزر اليسير وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ سلاحها لصرهم وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم (١)

(*) مترجم من كتاب أميل القرن التاسع عشر في التربية

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد الملوك لرعاياهم انهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ بل قد بلغ الغلو بهذه الدعوى ببعضهم ان ادعى الالوهية والصحيح المعروف لذوي العقول المطهرة من رجس مذهب الملحدين انهم عبيد استخلفهم الله في الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان أحسنوا الخلافة سعدوا وسعدوهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم «يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل

هذا السلطان المعصوم الذي لم يكد يبقى للانسان جراءة على ادعائه للاشخاص في وجه عبر التجربة الزاجرة لايزال يدعى للاوضاع البشرية فلا تكاد اي حكومة من الحكومات تستقر حتى تدعي أنها حلت محل المحكومين في أفكارهم وعزائمهم

ولا يخفى ان البلاد التي وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حزمهم و بلوغهم فيه حد الجبن أن يعظوا شبانها بأن لا يشتغلوا بالسياسة

تسمع الاب منهم يقول لابنه : « يابني ان لك أن تفتي وتتزوج وتجعل لنفسك في الناس ذكرا وليس من حقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا في جميع المسائل ويوزعوا المثوبات والعقوبات على الناس فهم كما تقول التوراة انفاس منخرية التي تحرق أموال المعاندين كالنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع فالاحزم لك أن تخلي بين الحكومة وعلمها واذا كان لابد لك من رأي فلا بأس من أن تختار لنفسك ما يلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها الا فلا فائدة للمرء من الاشتغال بمصالح غيره » والعاقل من يتوقى ادخال أصبعه بين الشجرة ولحائها (١)

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجري على ما يخالف ذلك كل المخالفة فلا يكاد طالب العلم فيها يملك اليسير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة في المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمي الى حزب من الاحزاب وهم يعدون كل البعد أن يعتقدوا ان في مجاهدات المعيشة

الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » وما يزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحا على اطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هي أس العدل والحرية واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لا يدل الا على أنه جهل ان الله لا ينصر الا من نصره باتباع اوامره وحسن السيرة في خلقه وانه تنزه ان يحتاج في النصرة الى الاستعانة بعدة أو سلاح

(١) المثل العربي « لا تدخل بين العصا ولحائها »

السياسية ضروا بالمعيشة البيتية بل هم يجعلون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها في ميدان الفروض العامة ولو ان وجدان العدل كان قاصراً على المعاملات الخاصة لعد من الظلم في حق عامة الناس

اذا تقرر هذا قلت إن جميع الامم خلقت لتكون احراراً ومن العبث ان يزعم زاعم ان منها من هي مفرطة في الطيش وفيها من هي غالية في التحمس ومنها من هي غارقة في الجهل ومنها من هي منغمسة في التأنق فقد نسي أن الوسيلة الى ترقية أخلاق الامم انما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولا مراء في أن هذه الاوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء وانه من الحمق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها لان جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة ان الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلي عنها وقد يرخون زمامها أحيانا حذقا منهم في تصريفها وحزما ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرتجعون تصريف شكيمتها الى أيديهم. ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطى ويوهب بل هي مما يغنم بالجهاد والمكافحة فشدة كفاح العقول والعزائم وجملة اخلاص المخلصين الخاملين وتصاب من لا يستخذون للذل من افراد الامة هي التي بضرورة الاحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على ارجاعه الى نصابه وورده الى أربابه وما يحصل من التعذير في أثناء الجهاد لا يلبث أن يزول وما يعقبه من الرقي دائم لا فناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع

ليس من قصدي مطلقا أن أبعث في نفسك كراهة الامة التي خلقت للمعيشة فيها فأنت صاحب الحكم على أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لغيرك والاستخفاف به فان عصرنا سيشتهر في التاريخ بخطوبه ومصائبه لاننا قد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد وهي حكومة الاصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابوليون وليست العصور التي تفنني وتؤلمني هي التي تسمى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وانما هي التي تخلد فيها الى الدعة من غير أن تنال حريتها

ان لداني من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية وانا اشتهي بمجامع قلبي ان

يكون الناشئون أسعد منهم حظا وأوفر غبطة ولكن ينبغي لهم ان يستفيدوا من زلاتنا ونجار بنا

انا قد غلونا فيما رجوناه من تصاريف الزمان وكلما سألت نفسي عن سبب مصائبنا خلتني أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعدًا عن الايمان بؤمن بالمعجزة ذلك أنه يعتقد في تغيير أحوال الامة بأمر من أوامر حاكم مطلق موقت الحكومة أو — على الأقل — أمر مجلس حاكم ولقد شهدت فرنسا غير مرة ثلاثي بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها وزوال مقاصد بعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم أنها لما انتصرت انتصارها العظيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين القى اليهم الاتفاق زمام سياستها نعم ان شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ضروبها. قد مضى زمن المسحاء فلن يرى بعد الآن لا في شكل حكومة منجية ولا في صورة حكومة تأتي الى الدنيا بالنور والهدى فعلينا أن نخلص أنفسنا من خداع الناس ونظرها من وثنية الاوهام لأن الامم لا تنال حريتها باتفاق ولا بسلطة غيبية فتنة للطبيعة(١) ولا بالبخت فلننظر فرنسا في نفسها نجد أن بختها هو عزيمتها.

أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هي أن تنفي عن عقلك الجهل والاوهام والاضاليل التي تبذر في الدنيا بذور الطغاة الغاشمين اذا فعلت ذلك كنت قد أديت في سبيلك الى الحرية شيأ من العمل. التعلم اثمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا يرمته من شأنه تحرير أبناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسا قد اهتدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد فإما أن يكون هذا هو ينبوع ما أصابنا من ضروب العجز وإما أن أكون مخطئا خطأ باحثا. لا حق لنا ان نعيب على الاتراك اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية بمعنى الله جل شأنه في حرية الامم أثر من آثار المذهب المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لوثه

أثبت منهم فيه ألف مرة ذلك أننا تابعون لبخت ومناخ خاضعون لمقدور سياستنا مرؤدون ميثاق الطاعة لحكومتنا حتى لو انتقلت الى أيدي الكفار وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة وإباء نرامهم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الامور كما لو كان لأي واحد من الناس أن يقنط من أهل زمانه ومن بلاده. اذا ظهر الشر والفساد في الامة كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته أن يجاهد في ازالة سببه وليس ينبغي الرجل الصالح افتخاره أحيانا بأن يتخيل في نفسه عالما آخر يطوي فيه معتقداته ويشرف من أعاليه على أمورهم فيحتقرها بل عليه أيضا أن لا يدخر ملاحاة يكلفه

ليست أمة من الامم من هذا العجز في شيء فأنت تعرف كلمة جوفينال (١) فكن خيرا منهم وأنور فكرا

ان ما يشكو منه جميع الناس في أزمان التدلي من خمود النفوس وأثرة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال منشؤه الناس كلهم أيضا فما منهم الا شريك في الهلاك العام إما بسكوته وإما بامتناعه اختيارا عن العمل على أن تلك الازمان هي التي يأتي فيها للنفوس الأبية أن تشتد وتثبت في تيار الدمار فعلينا ان لم نأنس من نفوسنا كفاية في القوة أن نستحين من سبقت لهم الشهادة في سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويعالجون عمى البصائر قبل أن يجتوا ثمار كدهم ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضبين بدمائهم ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكلوا خلال القرون الماضية في سلاسل العبودية المعنوية ولنتأمل في ماضينا فانا نجد فيه من السجون المظلمة والمنافي وأنواع العذاب والنكال ما يشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لا تدافع. ألا ان لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكروبين والمهضومين في سبيل تأدية ما فرض عليهم وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلك قبلة الوداع اه

(١) جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الأول من الميلاد ومات في عهد الانتونيين بيت من بيوت الملأ في روما)